

الجالية العربية في إسبانيا(*)

عبد الواحد إكمير(**)

مؤرخ وباحث مغربي، ومدير مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات في الرباط.

مقدمة

تختلف الهجرة العربية إلى إسبانيا عن تلك التي قصدت بلداناً أوروبية أو غربية أخرى. سواء من حيث توقيتها وظروفها أو من حيث أصولها الجغرافية وأنشطتها المهنية أو طبيعة اندماجها في المجتمعات المضيفة.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مسار وخصوصيات الجالية العربية في إسبانيا، والصعوبات التي تعترضها، والتي يمكن الوصول إلى حلول لبعضها إذا تم تأطير هذه الجالية على النحو المطلوب.

أولاً: بدايات الهجرة العربية إلى إسبانيا

قصد أوائل المهاجرين العرب شبه الجزيرة الأيبيرية، كما قصدوا جزر الكناري، وكان قدومهم من المغرب، كما كان من المشرق العربي. ففي شبه الجزيرة الأيبيرية، نعثر على بعض المهاجرين المغاربة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانوا من الديانتين اليهودية والمسلمة. وقد شجع القرب الجغرافي، والحركة التجارية بين ضفتي مضيق جبل طارق، على انتقال بعض التجار الذين استقرّوا في الأساس في منطقة الأندلس، وفتحوا محالّ تجارية في مدن على رأسها غرناطة وإشبيلية^(١).

(*) تتمثل هذه الدراسة خلاصة الكتاب الذي صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية تحت العنوان نفسه (٣٨١ ص).

akmir2005@yahoo.com.

(**) البريد الإلكتروني:

(١) أول مهاجر عربي نستحصل على معلومات موثقة حوله هو عبد السلام برادة الذي هاجر من مدينة فاس قبل منتصف القرن التاسع عشر، واستقرّ في إشبيلية حيث فتح محلاً تجارياً.

وإلى جانب هجرة التجار، كانت هناك هجرة الطلبة. وقد رحل أوائل الطلبة المغاربة للدراسة في الجامعات الإسبانية في بداية القرن العشرين، غير أن ذلك كان بأعداد رمزية، بحيث لا نسجل حضوراً لهم بنوع من الأهمية إلا منذ ثلاثينيات القرن العشرين، حيث استقروا في مدينة غرناطة. وإلى جانب التجار والطلبة، هاجر خلال مرحلة الحماية مجموعة من العمال للعمل في البناء والمناجم.

بالنسبة إلى الجنود المغاربة، نجدهم في إسبانيا منذ نهاية عشرينيات القرن العشرين. غير أن أهم هجرة للجنود المغاربة إلى إسبانيا ستبدأ مع اندلاع الحرب الأهلية سنة ١٩٣٦، يتعلق الأمر بأولئك الذين يعرفون بـ «مغاربة فرانكو» (Moros de Franco) الذين يراوح عددهم ما بين ٧٠ ألفاً و ١٠٠ ألفاً^(٢).

وعرفت إسبانيا هجرة مغربية جديدة منذ النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين، وخصوصاً منذ مطلع السبعينيات؛ من بين أسبابها، الأزمة الاقتصادية التي مسّت بعض البلدان الأوروبية. وقد ترك عدد من المهاجرين المغاربة وقلة من الجزائريين ببعض البلدان الأوروبية نحو إسبانيا.

بموازاة الهجرة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، قصدت الهجرة المغربية جزر الكناري، حيث نعث على أوائل المغاربة في جزيرة «تينيريفي» (Tenerife) سنة ١٩٦٠، ويرتبط وصولهم إليها بمرحلة الانتعاش الاقتصادي الذي عرفته الجزر في مجالي التجارة والسياحة والصيد البحري. وإلى جانب المغاربة، عرفت جزر الكناري هجرة موريتانيين وجزائريين، منذ الستينيات، وقد مارسوا الأنشطة نفسها التي مارسها المغاربة.

بالنسبة إلى الهجرة المشرقية، قصدت في البداية جزر الكناري، وكان ذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر. وقد قدم المهاجرون الأوائل من لبنان، وبدرجة أقل من سورية وفلسطين. ومع فرض الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، وتزايد الهجرة من هذه المنطقة نحو أمريكا بشقيها الشمالي والجنوبي، ارتفع عدد البواخر التي تتوقف في جزر الكناري قبل أن تواصل رحلتها، وكانت دائماً تترك بعض المهاجرين هناك^(٣). وبعد الحرب العربية - الإسرائيلية سنة ١٩٤٨، عادت الهجرة العربية إلى الارتفاع من جديد، وشملت خلال هذه المرحلة، الفلسطينيين

(٢) يتعدّد معرفة عددهم بالضبط، لأنّ حركة التمرّد التي قامت باستقطابهم، كانت ترفض الكشف عن الأرقام الحقيقية. غير أن جلّ الأبحاث التي تناولت الموضوع، تتفق على أن عددهم كان يراوح بين الرقمين المشار إليهما أعلاه. وبحسب المؤرخة «ماريا روزا دي ماداريغا»، كان عددهم ٨٠ ألفاً، منهم ٦٥ ألفاً ينتمون إلى منطقة الحماية الإسبانية شمال المغرب، و ١٥ ألفاً إلى المستعمرات الإسبانية جنوب المغرب (سيدي إفني والصحراء)، انظر: ماريا روزا دي ماداريغا، مغاربة فرانكو، ترجمة كنزة الغالي (الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٦)، ص ١٢٢.

(٣) تتحدّث الإحصاءات الرسمية عن وجود ١٠٣ مهاجرين عرب من بلاد الشام يقيمون في الجزر سنة ١٩١٠، وارتفع الرقم إلى ١٨٥ سنة ١٩١٥، لكنه عاد إلى النزول سنة ١٩١٧ حيث سجل فقط وجود ٤٠ مهاجراً عربياً.

بنسب مرتفعة مقارنة بالمراحل السابقة^(٤). وبعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٩٧٥، حل في الجزر مهاجرون لبنانيون تواصلت هجرتهم خلال الثمانينيات، في وقت توقفت فيه هجرة الفلسطينيين.

إن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته إسبانيا بعد انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي سنة ١٩٨٦، حول ذلك البلد إلى قبلة للمهاجرين من مختلف الجنسيات.

اشتغل أوائل المهاجرين المشاركة كباعة متجولين في أحياء المدن والمناطق القروية، ولم يؤسسوا محالاً تجارية إلا منذ عشرينيات القرن العشرين، بعد أن أصبحت هجرتهم دائمة، وكانت قبل ذلك هجرة مؤقتة، إذ كانوا يقضون مدة من الزمن بالجزر، قبل أن يرحلوا إلى أفريقيا الغربية أو أمريكا اللاتينية.

ومنذ ثلاثينيات القرن العشرين، وموازة مع النجاح الاقتصادي الذي حققوه، بدأ مسلسل الاندماج الاجتماعي من خلال الزواج المختلط، وقد شمل ذلك، أولاً، العرب المسيحيين، ثم بعده العرب المسلمين. بالنسبة إلى الأبناء ثمة هذا الزواج، اتبعوا ديانة الأمهات، نتيجة تأثير المحيط والمجتمع والمدرسة، كما فقدوا الموروث الثقافي الذي تمثله اللغة والعادات والتقاليد العربية.

وبخلاف الهجرة إلى جزر الكناري التي كانت لأسباب اقتصادية، كانت هجرة العرب المشاركة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية لأسباب ثقافية وسياسية، وكان أوائل الذين هاجروا، من الطلبة المصريين في خمسينيات القرن العشرين. ومنذ الستينيات بدأت هجرة الطلبة الشاميين، أساساً السوريين الذين تخصصوا في مجالي الطب والصيدلة. وقد مكث أغلبهم في إسبانيا بعد إنهاء دراستهم.

وإلى جانب الذين هاجروا لأسباب ثقافية، هاجر العشرات من السوريين لأسباب سياسية، بعد مجزرة حماة التي ارتكبت ضد المنتمين إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٨٢، لذا فإن أغلب الذين طلبوا حق اللجوء السياسي في إسبانيا بعد هذا التاريخ كانوا من المنتمين إلى هذا التنظيم أو المتعاطفين معه. وسيداً مع وصول هؤلاء، اهتمام خاص بالأوضاع السياسية في الوطن. وهو اهتمام سجل لدى الفلسطينيين قبل هذا التاريخ، وقد أدى الذين هاجروا منهم بعد حرب ١٩٦٧، خصوصاً إلى جزر الكناري، دوراً مهماً في إنكفاء الحماس الوطني لدى الفلسطينيين وبقية العرب. وعقب الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان سنة ١٩٨٢، ومع شروع منظمة التحرير الفلسطينية في البحث عن دعم فلسطيني المهجر، تم ربط الاتصال بالفلسطينيين المقيمين في

نقلًا عن: 6: *Canarii*, no. 6, «La Inmigración siria, libanesa y palestina en Canarias», José Abu Tarbush, (Noviembre 2007), <<http://revistacanarii.com/canarii/6/de-estacion-de-paso-a-puerto-de-destino>>.

(٤) كان يقيم في جزر الكناري سنة ١٩٥٥، ما مجموعه ٥٠٥ مهاجرين مشرقين، وارتفع الرقم إلى ٦٧٤ سنة ١٩٥٩، أكثر من ثلثهم من الفلسطينيين الذين كان يُقدَّر عددهم بـ ٢١٦ سنة ١٩٦٦.

جزر الكناري، وفي شبه الجزيرة الأيبيرية، الذين كثفوا جهودهم للتعريف بالقضية الفلسطينية. وأسس الطلبة الفلسطينيون «الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين»، المنضوي تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية التي اعترفت بها إسبانيا كممثل للشعب الفلسطيني منذ سنة ١٩٧٩.

ثانياً: التطور العددي والإطار القانوني للهجرة العربية إلى إسبانيا

إن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته إسبانيا بعد انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي سنة ١٩٨٦، حوّل ذلك البلد إلى قبلة للمهاجرين من مختلف الجنسيات. وقد وصل عددهم سنة ٢٠١١ إلى ٥,٧٠٠,٠٠٠، وأصبحوا يتجاوزون ١٢ بالمئة من مجموع السكان، وهي أعلى نسبة مسجلة في بلدان الاتحاد الأوروبي. وعلى غرار الهجرات الأخرى، عرفت الهجرة العربية إلى إسبانيا تطوراً سريعاً، سواء من حيث أعدادها، أو من حيث أصولها الجغرافية.

وأمام هذا الزخم من الجحافل البشرية، كان لزاماً إصدار قوانين خاصة بالهجرة، التي لم تتوفر إسبانيا عليها إلى غاية منتصف ثمانينيات القرن العشرين. وقد صدر أول قانون للهجرة في إسبانيا الديمقراطية سنة ١٩٨٥، وتم تغييره سنة ٢٠٠٠ بقانون جديد، تم تغييره هو الآخر عدة مرات على امتداد العقد الأول من القرن الحالي.

لم يكن صدور هذه القوانين تبعاً كافياً أمام العدد الكبير من المهاجرين الذين يوجدون في وضعية غير قانونية، لذا كان لزاماً القيام بإجراءات خاصة اصطلاح على تسميتها «التسوية الاستثنائية». وقد تم ذلك خمس مرات على امتداد عشرين سنة (١٩٨٦ - ٢٠٠٥)، واستفاد منه حوالي ١,٢٠٠,٠٠٠ مهاجر. وقد احتلت الجالية المغربية المراتب الأولى أو الثانية أو الثالثة في كل هذه التسويات الاستثنائية، كما تبين أن نسبة الذين استفادوا منها يحملون جنسيات عربية أخرى، أساساً الجزائرية.

ثالثاً: الهجرة السرية وهجرة القاصرين

بدأت الهجرة السرية سنة ١٩٨٨، وتعود أول حالة مسجلة بشكل رسمي إلى شهر تشرين الثاني/نوفمبر من تلك السنة؛ يتعلق الأمر بغرق قارب على ظهره ٢٣ مهاجراً سرّياً كلهم مغاربة، ٥ منهم فقط تمكّنوا من النجاة. وكان ركوب البحر بتلك الطريقة الوسيلة الوحيدة بالنسبة إليهم للوصول إلى «الفردوس الأوروبي». ومع هذا، فالهجرة السرية التي تستعمل البحر للوصول إلى الضفة الشمالية للمضيق، بقيت محدودة إلى سنة ١٩٩٠، عقب توقيع اتفاقية شينغن التي تمّ في ضوءها فرض تأشيرة الدخول على رعايا العديد من البلدان، من بينها بلدان المغرب العربي التي تنتمي إليها أكبر جالية عربية في إسبانيا.

وعلى غرار الهجرة القانونية، ينتمي أوائل المهاجرين المغاربة الذين عبروا إلى إسبانيا بطريقة غير قانونية إلى شمال المغرب، غير أن الإقبال على الظاهرة تم بسرعة كبيرة، ليشمل في وقت قياسي مختلف مناطق المغرب، ثم ليمتد إلى الجزائر في مرحلة ثانية، وإلى بلدان أفريقيا جنوب الصحراء في مرحلة ثالثة.

في مرحلة أولى كانت القوارب تنطلق فقط من منطقة مضيق جبل طارق، لكن، بسبب تشديد المراقبة، امتدت لتشمل كل ساحل البحر الأبيض المتوسط المغربي، ثم سواحل المحيط الأطلسي المغربية، على طول المنطقة الموجودة بين طنجة والدار البيضاء، ثم من جنوب المغرب، ومن سواحل موريتانيا، في اتجاه جزر الكناري، وبعد ذلك، من سواحل شمال غرب الجزائر، وأساساً من منطقة وهران. وكانت وجهة من يبحر من هناك، في البداية، السواحل الشرقية لإسبانيا الممتدة بين مرسية وبالنسيا، ثم بعد ذلك سواحل ألمرية. وقد تجاوز عدد المهاجرين السريين الذين نجحوا في عبور المضيق سنة ٢٠٠١، ما مجموعه ١٤ ألفاً، ونزل الرقم في السنة التالية إلى نصف هذا العدد^(٥). أما عدد الغرقى، فقد بلغ خلال المرحلة الممتدة ما بين سنتي ١٩٩٦ و ٢٠٠١ حوالي ٤ آلاف^(٦).

بخصوص هجرة القاصرين غير المصحوبين، رُصدت أولى الحالات في مطلع تسعينيات القرن العشرين، وكانوا من المغاربة، واستقرّوا في إقليم الأندلس القريب من المغرب. وقد بقي عددهم متواضعاً إلى منتصف ذلك العقد، عندما بدأ يتزايد تدريجياً، ليصل سنة ١٩٩٧ إلى ٢٤٣٥ قاصراً، ثم ارتفع سنة ٢٠٠٠ إلى ٥٧٩٦^(٧). في تلك الأثناء، تجاوز عدد القاصرين المغاربة في مراكز الإيواء في بعض الأقاليم عدد الإسبان.

ومع بداية القرن الحادي والعشرين، تزايد عدد القاصرين المغاربة بشكل كبير، وتضمّن بالإضافة إلى إقليم الأندلس، جهات أخرى، أساساً برشلونة ومدريد وبالنسيا، ثم امتد إلى مختلف الأقاليم. وتحديث الأرقام الرسمية عن وجود ١١٤١١ قاصراً أجنبياً غير مصحوب في إسبانيا سنة ٢٠٠٥، ٨٠ بالمئة منهم مغاربة^(٨)، والباقيون من الجزائر وأفريقيا جنوب الصحراء وأوروبا الشرقية. ويرواح عمر أغلبهم ما بين ١٤ و ١٧ سنة، مع وجود حالات تتضمّن قاصرين تقلّ

(٥) Bernabé López García y Manuel Lorenzo, «Los Focos de la inmigración irregular,» *Atlas de la inmigración irregular*, vol. 2 (2004), p. 90, <http://www.uam.es/otroscentros/teim/observainmigra/atlas%202004/03%20decada%20de%20relaciones/blg-mlorenzo_los%20focos%20de%20la%20inmigracion%20irregular.pdf>.

(٦) Tomas Bárbulo, «Los Muertos en la costa marroquí cuadruplican a los detectados en España, según ATIME,» *El País*, 25/7/2001, <http://elpais.com/diario/2001/07/25/espana/996012013_850215.html>.

(٧) أرقام مستمدة من الدراسة الميدانية التي أنجزها فريق من الباحثين الإسبان اعتماداً على إحصاءات رسمية وتقديرات المنظمات غير الحكومية، انظر: Verónica Cobieta Gallego [y otros.], «La integración social de los menores no acompañados: nuevos retos en la Comunidad de Madrid,» Dialnet, <<http://dialnet.unirioja.es/descarga/articulo/2001982.pdf>>.

(٨) الإحصاءات المقدّمة من حكومات الأقاليم، تجعل نسبة القاصرين المغاربة تراوح بين ٧٥ بالمئة و ٩٢ بالمئة، من القاصرين الأجانب في كلّ إقليم. انظر: المصدر نفسه.

أعمارهم عن هذا السن، بعضهم لم يتجاوز التاسعة، وأغلبهم ذكور، يهاجرون في الظروف نفسها التي يهاجر فيها بقية المهاجرين السريين.

في بعض الحالات، يسقط القاصرون غير المصحوبين في الدعارة والاستغلال الجنسي، خصوصاً الذين ينتهي بهم المطاف في الشارع دون مأوى. وتمثل مراكز الإيواء فرصة لانتشالهم من الضياع. غير أنه ليس كل مراكز القاصرين تحقق النجاح، فالكثير منها تعيش مشاكل عديدة، خصوصاً التي يتم إنشاؤها بشكل سريع وتحت ضغط الحاجة.

رابعاً: التوزيع الجغرافي والنشاط المهني للجالية العربية في إسبانيا

يتمركز السواد الأعظم من العرب في أربعة أقاليم، هي مدريد وكاتالونيا وبالينسيا والأندلس. ويرجع سبب التمرکز في الإقليمين الأولين إلى فرص الشغل المتوافرة، خصوصاً في البناء والأشغال المنزلية. وسبب التمرکز في الإقليمين الآخرين هو فرص الشغل التي يوفرها قطاعا السياحة والفلاحة. وقد عرف توزيع المهاجرين العرب تطوراً داخل كل واحد من هذه الأقاليم، بحيث كان الاستقرار في البداية في عاصمة الإقليم، لكن مع تقدم الوقت بدأ الامتداد إلى الضواحي والبلدات التابعة للإقليم نفسه.

وعلى امتداد تسعينيات القرن العشرين، احتل المغاربة المرتبة الأولى من بين الأجانب في الأقاليم الأربعة. ورغم أن أعدادهم فيها في تزايد، فإن التنوع الكبير في جنسيات الأجانب الذين توافدوا على إسبانيا خلال السنوات الأولى من القرن الحالي، جعلت النسبة التي يمثلها المغاربة تعرف بعض التراجع^(٩).

بالنسبة إلى الجزائريين، نسجل حضوراً مهماً لهم في الأقاليم الشرقية الممتدة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، من كاتالونيا في أقصى الشمال الشرقي إلى مرسية والأقاليم المحاذية لها في الجنوب الشرقي، خصوصاً بالينسيا^(١٠). ويعود سبب التمرکز في هذه المناطق إلى القرب الجغرافي من الجزائر، وإلى وجود خطوط بحرية مباشرة تربط موانئ شرق إسبانيا بميناءي وهران والجزائر.

(٩) ارتفع عدد المغاربة المقيمين في مدريد بطريقة قانونية من ٣٠٧٥ سنة ١٩٩٠ إلى ١١٩٢٩ سنة ١٩٩٢، ثم إلى ٤٦٦٧١ سنة ٢٠٠٣، لكن نسبتهم تراجعت من ٢١,٧ بالمائة سنة ١٩٩٢ إلى ١٣,٩ بالمائة سنة ٢٠٠٣. انظر: Tamayo D'Ocon y Lora Gloria, «Inmigración marroquí en la comunidad de Madrid», *Atlas de la inmigración irregular*, vol. 2 (2004), p. 337.

(١٠) في سنة ١٩٩١، كان يقيم حوالي ٤٠ بالمائة من مجموع الجزائريين في إسبانيا، في إقليم بالينسيا، التي وصل فيها عددهم إلى ٢٤٩٧ سنة ٢٠٠٣. انظر: López García, «Los Argelinos en España», *Atlas de la inmigración irregular*, vol. 2 (2004), p. 457.

وفي ما يتعلق بالموريتانيين، نجد أنهم حضور لهم في كاتالونيا ومدريد وجزر الكناري. وإذا كان تركزهم في كاتالونيا ومدريد يعود إلى الازدهار الاقتصادي للإقليمين، فإن وجودهم في جزر الكناري يرجع في الأساس إلى القرب الجغرافي، وإلى قدم الهجرة الموريتانية إلى الجزر. أما بالنسبة إلى التونسيين، فيوجد أنهم تركز لهم في مدريد وبرشلونة.

يتعذر ضبط أماكن وجود المهاجرين من بقية الجنسيات العربية، بسبب غياب المعطيات الإحصائية، وإن كنا نعلم أن أهم حضور عددي للجالية السورية هو في مدريد وكاتالونيا وباليونان. غير أن خصوصية هذه الجالية، تتمثل بكون أهميتها العددية لم يعد يشكلها المهاجرون، وإنما المتحدرون الذين بحكم حملهم للجنسية الإسبانية، لا تضعهم إحصاءات السكان في خانات الأجانب.

وفي ما يتعلق بنشاطهم المهني، يُسجل لدى الجالية العربية أعلى نسبة من اليد العاملة النشيطة بين الأجانب، حيث وصلت إلى ٧٣ بالمئة سنة ٢٠٠٧ لدى المغاربة^(١١). مردّد ذلك إلى كون أغلبية المهاجرين العرب هم في سن العمل. ولا نعثر على العمالة المغربية في المهن التي تتطلب تكويناً عالياً إلا بشكل محدود، إذ يزاو ٧٠ بالمئة من المغاربة مهناً لا تتطلب أي تأهيل^(١٢)، بخلاف ما هو عليه الحال في فرنسا وبلدان أوروبية أخرى. ولا يترجم وجود نسبة مرتفعة من اليد العاملة بشكل إيجابي في سوق العمل، إذ لم يكن يتوفر على منصب شغل سنة ٢٠٠٧ إلا ٤٣ بالمئة من المغاربة المصنّفين ضمن اليد العاملة النشيطة. وقد سارت نسبة البطالة في خط تصاعدي، وهي تصيب اليوم (عام ٢٠١٣) حوالى ٦٠ بالمئة من العمالة المغربية في إسبانيا.

جعل استقرار العرب في المناطق القروية نسبة المشتغلين بينهم في الفلاحة مرتفعة، وقد بلغت سنة ١٩٩٧ لدى الجزائريين ٦٠ بالمئة، ولدى المغاربة ٥٠ بالمئة (الرتبتان الأولى والثانية بحسب الجنسيات)^(١٣). وفي سنة ٢٠١٠ لم يعد قطاع الفلاحة يستقطب أكثر من ٢٢ بالمئة من اليد العاملة المغربية^(١٤). ورغم هذا التراجع ما زالت العمالة المغربية تسجل واحدة من أعلى النسب في القطاع الفلاحي.

ومن الأنشطة المهنية الأخرى التي تستقطب العمالة المغربية، هناك قطاع البناء الذي عرف رواجاً غير مسبوق منذ تسعينيات القرن العشرين، بسبب انتشار ما سُمّي «الفورة العقارية». غير أنه في الوقت الحاضر تعرّضت أهم شركات العقار للإفلاس، وهو ما نجم عنه تسريح آلاف

Zakya Daoud, *La Diaspora marocaine en Europe* (Casablanca: La Croisée des Chemins, 2011), (١١) p. 232.

(١٢) المصدر نفسه.

Víctor Díaz Pérez, Miranda Berta Álvarez y Chulia Elisa, *La Inmigración musulmana en Europa*, Colección Estudios Sociales; no. 15 (Madrid: Fundación La Caixa, 2004), p. 143.

Daoud, Ibid., p. 233.

(١٤)

العمال، إسباناً ومهاجرين. وهناك العمل في البيوت بالنسبة إلى النساء، خصوصاً في المدن الكبرى، حيث توجد طبقة وسطى إسبانية مهمة عديداً، بإمكانها التعاقد مع خادمتين^(١٥).

إلى جانب الذين يعملون في القطاعات المختلفة السالفة الذكر، نسجل وجوداً متزايداً للمغاربة الذين يعملون لحسابهم الخاص، أساساً في التجارة التي عرف حضور المغاربة فيها تطوراً مهماً في العقود الأخيرة، ولم يكن هذا الحضور في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين يتجاوز الباعة المتجولين الذين يعرضون بعض منتجات الصناعة التقليدية المغربية في شوارع المدن

تؤكد ظاهرة «الموروفوبيا» أن قضية الأندلس انتهت من الناحية الكرونولوجية، لكن من الناحية العاطفية والنفسية والإبداعية ما زالت مستمرة.

الكبرى، أو تجاراً من الأصل نفسه يمتلكون محالاً تجارية تعرض المنتجات نفسها في المدن السياحية الساحلية، أو في تلك التي لها علاقة بالحضارة الأندلسية^(١٦).

خامساً: الجالية العربية في المجتمع الإسباني

الرفض للأجانب في إسبانيا هو بمستويات مختلفة، لذا يبرز وزن التاريخ والدين والثقافة مع العرب أكثر من غيرهم. أما سبب ذلك، فهو ظاهرة معقدة ومركبة نجدها في المجتمع الإسباني دون غيره من المجتمعات الغربية، إذ تؤكد ظاهرة «الموروفوبيا» أن قضية الأندلس انتهت من الناحية الكرونولوجية، لكن من الناحية العاطفية والنفسية والإبداعية ما زالت مستمرة. غير أن جذور «الموروفوبيا» لا تعود فقط إلى المرحلة الأندلسية، بل لها علاقة كذلك بمجموعة من الأحداث، بعضها دموي، عرفته العلاقات المغربية - الإسبانية على امتداد القرن العشرين.

ومن أجل ربط الماضي بالحاضر، وإخضاع الظاهرة للتحليل، اعتمدنا حدثاً معبراً، هو ما وقع في بلدة إليخيدو (El Ejido) (ولاية ألمرية)، وهو لا نعثر على حدث مشابه له في أي بلد أوروبي آخر من الذي توجد فيه جاليات عربية. هذا الحدث مهما اختلفت حوله التفسيرات، تبقى «الموروفوبيا» أحد أسبابه الرئيسية.

أما السبب المباشر الذي فجّر الأحداث، فهو إقدام مهاجر مغربي مختلّ عقلياً على اغتيال فتاة إسبانية في أحد أسواق بلدة إليخيدو الأندلسية في شباط/فبراير ٢٠٠٠، وهي البلدة التي

(١٥) تمثل خادمتان البيوت ٦٠ بالمئة من مجموع المغريبات العاملات في إسبانيا. انظر: Encuesta Colectivo Ioé. Cfr. Víctor Pérez, p. 232.

(١٦) في سنة ٢٠٠٤، كان يوجد في مقاطعة «سيوداد فييا» (Ciutata Vella)، في إقليم كتالونيا، ٢١ «مجزرة حلال»، من بينها ٦ يملكها مغاربة، والبقية يملكها جزائريون وباكستانيون، كما كان يوجد فيها ٥٥ مخدعاً هاتفياً أغلبها بيد مغاربة. انظر: Jordi Moreras, «La Integración por el mercado: Las iniciativas comerciales y empresariales de los marroquíes en Cataluña», *Atlas de la inmigración irregular*, vol. 2 (2004), p. 313.

كان يعيش فيها حوالي ١٥ ألف مهاجر مغربي، من مجموع سكانها الذي كان يقدر آنذاك بـ ٦٠ ألف نسمة. الحادث سبّب هيجان سكان البلدة، حيث احتشد أكثر من ٣ آلاف منهم مسلحين بالسلاسل والعصي والقضبان الحديدية، وبدأوا بملاحقة المغاربة، حيث أضرموا النيران في سياراتهم وخرّبوا مقاهيهم ومتاجرهم وبيوتهم ومساجدهم. واعتبرت هذه الحادثة أكبر ملاحقة عنصرية جماعية لأقلية عرقية عرفتها أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

١ - الجالية العربية في استطلاعات الرأي الإسبانية

تؤكد استطلاعات الرأي كذلك الرفض الكبير للعرب في المجتمع الإسباني، فعلى امتداد عشر سنوات (١٩٩١ - ٢٠٠٠)، احتلت الجالية العربية المرتبة الأخيرة في تقييم الإسبان للأجانب، وقد منحتهم استطلاعات الرأي نقطة أقل من التي منحتها لمهاجري أفريقيا جنوب الصحراء، رغم أن ظروف هجرة هؤلاء ووضعيتهم القانونية لا تختلف عن وضعية العرب. ولم تتجاوز نسبة الإسبان الذين يفضلون المهاجرين العرب على المهاجرين من جنسيات أخرى ١ بالمئة^(١٧).

وحتى بعد التعرّف إلى المهاجرين العرب شخصياً، لا يغيّر أغلب الإسبان مواقفهم منهم، وقد أكد ٧٥ بالمئة من المستجوبين أنهم تبقى لهم النظرة نفسها، مقابل ١٩ بالمئة صرّحوا أن صورة العرب تتحسن لديهم، و٤ بالمئة تسوء هذه الصورة لديهم. ويعترف المستجوبون أن الموقف السلبي من العرب يتقاسمونه مع كل أفراد عائلاتهم، فهو عند الشباب كما عند المتقدمين في السن، وهو عند المنتمين إلى الطبقة الدنيا كما عند المنتمين إلى الطبقة الوسطى أو العليا، وهو عند المنتمين إلى اليسار كما عند المنتمين إلى الوسط أو اليمين^(١٨).

وبحسب استطلاعات الرأي، أول ما يتبادر إلى ذهن المواطن الإسباني عندما يسمع كلمة «مهاجر»، هو الشخص العربي الذي يعمل في البناء أو الفلاحة أو كبايع متجول أو متورط في عمل إجرامي أو إرهابي. ومع تقدم الوقت، وانتقال الهجرة العربية إلى الاستقرار الدائم، وتكوين العائلة العربية في المهجر، توسع مدلول كلمة «مهاجر» في ذهن الإسباني ليشمل كذلك النساء والأطفال العرب، بمن فيهم الذين ولدوا في إسبانيا.

تسمح لنا استطلاعات الرأي باستكمال الصورة من خلال رصد موقف الجالية العربية من المجتمع الإسباني. فـ ٨٠ بالمئة من المغاربة يقولون إنهم يحسّون بتمييز عنصري أثناء بحثهم عن الشغل، و٦٧ بالمئة لهم الإحساس نفسه أثناء بحثهم عن السكن، و٥٢,٧ بالمئة أنهم أكثر عرضة للعنصرية من بقية المهاجرين، و٥٩,٧ بالمئة يرون أن الإسبان يثقون ببقية الجاليات أكثر من ثقتهم بهم. وبسبب هذا الرفض يتحاشى المهاجر العربي إقامة علاقات مع الإسبان.

(١٧) Juan Díaz Nicolás y María José Lafita Ramírez, *La Inmigración en España: Una década de investigación*, Colección Inmigración y Refugio (Madrid: Ministerio de Trabajo y Asuntos Sociales, Instituto de Migraciones y Servicios Sociales, 2001), p. 166.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٩٨.

ويفضل ٨, ٨٧ بالمئة من المغاربة ربط علاقات صداقة مع مواطنيهم، ثم مع عرب آخرين، ثم مع مهاجرين من ثقافات أخرى على ربطها مع الإسبان^(١٩).

لكن بخلاف التحقّظ الذي أبداه المهاجرون العرب من المجتمع الإسباني، ومواقفه التي يصفونها بالإقصائية، هناك ثقة كبيرة بالدولة ومؤسساتها. ففي استطلاع للرأي، قال ٧٢ بالمئة من أفراد الجالية العربية الإسلامية إن إسبانيا تتمتع بدرجة كبيرة من الحرية يفتقدونها في بلدانهم. ويعتبر المهاجرون العرب كذلك إسبانيا نموذجاً لدولة المؤسسات، بحيث عبّر ٧٣ بالمئة من المستجوبين عن ثقتهم بالمؤسسات غير الحكومية، و ٧٠ بالمئة عن ثقتهم بالملكية الإسبانية، و ٦٥ بالمئة عن ثقتهم بالمؤسسة القضائية، والنسبة نفسها بالشرطة، و ٦٣ بالمئة بالبرلمان الإسباني^(٢٠).

٢ - بنية العائلة العربية المهاجرة

سار التكتل العائلي للمهاجرين العرب إلى إسبانيا في خط تصاعدي، خصوصاً منذ النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين. ففي سنة ١٩٩٧، مثّل المغاربة ٦٠ بالمئة من الأجانب الذين قدموا طلبات التكتل العائلي، ونزلت النسبة إلى ٥٤ بالمئة سنة ١٩٩٩^(٢١).

ورغم هذا التراجع، يعتبر التكتل العائلي داخل الجالية العربية في إسبانيا، مرتفعاً مقارنة بالتكتل العائلي داخل الجالية العربية في البلدان الأوروبية ذات الهجرة القديمة، مثل فرنسا وبلجيكا وهولندا، التي أصبح فيها السواد الأعظم من الجالية يشكّله المتحدرون الذين يقرّرون الزواج في هذه البلدان، في الكثير من الحالات داخل الجالية نفسها، بدل العودة إلى وطن الآباء، كما هو الحال في إسبانيا.

وتتمّ قضية التكتل العائلي أحياناً بشكل معكوس، حيث تهاجر المرأة المغربية، خصوصاً المغربية، إلى إسبانيا وحدها، وبعد أن تسوّي وضعيتها القانونية والمهنية، تعود إلى بلدها قصد الزواج، وفي الغالب تكون مطلوبة له من طرف أحد الشبان الحالمين بالهجرة الذين يرون أن السبيل إلى ذلك هو الارتباط بامرأة مهاجرة.

وقد سمح تكوين العائلة في إسبانيا بارتفاع عدد أفراد الجالية العربية بشكل واضح، وقد وصل عدد الأطفال العرب الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة في عام ٢٠٠٥ إلى ١٥٠ ألفاً، وهو ما

(١٩) Rosa Gómez Aparicio, «Los Marroquíes en España. Retrato comparativo con otros colectivos a través de una encuesta», *Atlas de la inmigración irregular*, vol. 2 (2004), p. 398.

(٢٠) Estudios sociales y de opinión, «La Comunidad musulmana de origen inmigrante en España», *Metroscopia*, <<http://www.mjusticia.gob.es/cs/Stellite/1292346193946?blobh>>.

(٢١) Paloma Crespo Gómez, «El Proceso de reagrupación familiar», *Atlas de la inmigración irregular*, vol. 1 (2004), p. 226.

يمثل أكثر من نصف عدد الأطفال الأجانب^(٢٢). وساهم تزايد عدد أبناء الجيل الثاني في ارتفاع نسبة التلاميذ من أصول مغربية في المدارس الإسبانية منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين، إذ غدوا على امتداد هذا العقد أهم جالية أجنبية من حيث عدد التلاميذ. وراوحت النسبة التي مثلوها على امتداد التسعينيات ما بين ٢٠ و ٢٥ بالمئة من مجموع التلاميذ الأجانب. وفي سنة ٢٠١٠، بلغ عدد التلاميذ المغاربة في المدارس الإسبانية ٨٢,٤٧٢، منهم ٩٠ بالمئة في المدارس العمومية. وهم يمثلون أكثر من ثلث تلاميذ الجالية العربية والإسلامية، وقد وصل عددهم في الموسم الدراسي ٢٠١٢-٢٠١٣ إلى ٢٢٢,٩٤٢ تلميذاً^(٢٣).

وترتفع نسبة الفشل الدراسي لدى أبناء الجالية العربية مع تقدم المستوى التعليمي، وهكذا ففي المستوى الابتدائي، نسجل أن نسبة المغاربة مشابهة لنسبة الإسبان والجاليات الأخرى، لكن في المستوى الإعدادي تتجاوز نسبة المغاربة الذين يتركون المدرسة ٧٠ بالمئة، بينما تراوح النسبة لدى الأمريكيين اللاتينيين ما بين ٤٠ و ٥٠ بالمئة، ولا تتعدى لدى الرومانيين والبولنديين ٢٠ بالمئة، وهي نسبة قريبة من تلك المسجلة لدى الإسبان. ولا تتجاوز نسبة المغاربة الذين ينهون مختلف مراحل التعليم الابتدائي والثانوي ويصلون الجامعة ٢٠ بالمئة، بينما تتجاوز النسبة لدى الأوروبيين الشرقيين والأمريكيين اللاتينيين ٥٠ بالمئة^(٢٤).

وإلى جانب التلاميذ الذين يوجدون مع عائلاتهم، والذين درسوا على الأقل مرحلة من مراحل التعليم السابق للجامعة في إسبانيا، تصل إلى إسبانيا أعداد من الطلبة العرب الذين يأتون من أجل الدراسة في جامعاتها. ومنذ البداية، كانت أعلى النسب هي المسجلة بين المغاربة، ثم بين السوريين. وإذا كانت نسبة السوريين قد تراجعت في العقود الأخيرة، فإن نسبة المغاربة في تزايد مستمر، حيث يقدر عددهم في الوقت الحاضر (عام ٢٠١٣) بحوالي ٦٠٠٠ طالب، أغلبهم في جامعة غرناطة.

شجع التخرّج في الجامعة في إسبانيا بعض الطلبة العرب الذين قرّروا المكوث هناك بعد إنهاء دراستهم، على خوض غمار الممارسة السياسية، غير أن حضورهم في الحياة السياسية

José Abad y Lujan Mestre, «La Protección de menores migrantes no acompañados: Un modelo de intervención social», *Revista alternativas* (Cuadernos de trabajo social), no. 14 (2006), p. 162, <<http://rua.ua.es/dspace/bitstream/10045/6511/1/alt1410pdf>>.

«Estudio demográfico de la población musulmana», Unión de Comunidades Islámicas de España (UCIDE), and Observatorio andalusí (2013), <<http://oban.multiplexor.es/estademograf.pdf>>.

Víctor Díaz Pérez, Miranda Berta Álvarez y Chulia Elisa, *La Inmigración musulmana en Europa*, Colección Estudios Sociales; no. 15 (Madrid: Fundación La Caixa, 2004), p. 156.

الإسبانية لا يزال متواضعاً، بسبب حادثة الهجرة، وعدم وجود أعداد مرتفعة من خريجي الجامعة الإسبانية بين أبناء الجيل الثاني المولودين في إسبانيا، كما هو الحال في بلدان أوروبية أخرى، مثل هولندا وبلجيكا، وخصوصاً فرنسا التي وصل المتحدرون من أصل عربي المتخرجون في جامعاتها إلى مناصب القرار السياسي. ولا يتجاوز حضور العرب في الحياة السياسية الإسبانية أصابع اليد، وأغلبها مناصب رمزية غير مؤدى عنها، مثل العضوية في بعض المجالس البلدية المحدودة الأهمية، أو في بعض النقابات، حيث يشرفون على تأطير مواطنهم نقابياً.

سادساً: مغاربة سبتة ومليلية

بدأت الهجرة المغربية إلى مليلية في منتصف القرن التاسع عشر، وكان أول من استقر فيها مجموعة من شبان القرى المجاورة، شكّلت بهم إسبانيا ما سُمّي «فيلق المغاربة الرماة في الريف». وقد بقي حضور المغاربة في مليلية محدوداً إلى ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية، حيث فضل عدد من المغاربة الذين شاركوا فيها الاستقرار في المدينة.

بالنسبة إلى سبتة، تعود بداية هجرة المغاربة إليها إلى ستينيات القرن التاسع عشر؛ يتعلق الأمر ببعض اليهود الذين رافقوا القوات الإسبانية بعد حرب تطوان. أما المسلمون، فلم يكن الذين استقروا منهم فيها قبل حرب تطوان مغاربة، وإنما جزائريين قدموا إليها برفقة القوات الإسبانية، بعد نهاية الاحتلال الإسباني لوهران سنة ١٧٩٢. وبخصوص المغاربة المسلمين، فقد بدأ استقرارهم فيها في سبعينيات القرن التاسع عشر. وكان قدومهم إليها من القرى المجاورة، ومن مدينة تطوان ومدن أخرى شمال المغرب. كما قدمت إليها بعض العائلات الفاسية التي اشتغلت بالتجارة، والتي نجدها كذلك في مليلية.

وقد تزايد عدد المغاربة في سبتة ومليلية بعد استقلال المغرب بفعل الهجرة، وكذا بفعل حالات الزواج بين مغاربة المدينتين ومغاربة المغرب. ووصل عدد مغاربة سبتة في نهاية عام ٢٠١٢ إلى ٣٥٩٩٠، وعدد مغاربة مليلية إلى ٤٠٥٢٧^(٢٥)، وهم يمثلون بذلك حوالى ٥٠ بالمئة من مجموع السكان.

كما حافظ المغاربة الذين هاجروا إلى المدينتين على جنسيتهم المغربية، لكنهم كان يتعذر عليهم في الكثير من الحالات الحصول على وثائق تثبت هويتهم المغربية، لعدم وجود مصالح إدارية مغربية في المدينتين. في الوقت نفسه، كان يصعب عليهم الحصول على الجنسية الإسبانية، بسبب العراقيل التي كانت تضعها السلطات الإسبانية. هذا الإقصاء خلق نوعاً من الوعي لدى مغاربة سبتة ومليلية بالحاجة إلى الحصول على حقوقهم، وعلى رأسها حق المواطنة. وقد اضطرت إسبانيا بعد انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي إلى إصدار قانون خاص يتماشى مع التشريعات الأوروبية في مجال الجنسية، دخل حيّز التنفيذ سنة ١٩٨٧. وهو ما سمح لأغلب

المغاربة بالحصول على الجنسية الإسبانية. بحيث وصلت نسبة الحاصلين عليها في سبتة إلى ٨٧ بالمئة، وفي مليلية إلى ٧٧ بالمئة، في نهاية عام ٢٠١٢^(٢٦).

لقد تحقق الحصول على الجنسية وحقوق المواطنة على الورق، لكنهما بعيدان من أن يتحققا في الواقع، فالإقصاء الاجتماعي هو واحد من المظاهر التي يعيشها مغاربة المدينتين. ويوجد في سبتة أكبر «حي عرقي» في إسبانيا، يتعلق الأمر بحي «برنسيبي» (Príncipe) الذي يقدر عدد ساكنيه بحوالى ١٥,٠٠٠ نسمة كلهم مغاربة، وهو ما يمثل حوالى ربع سكان سبتة. كما نسجل التمرکز نفسه في مليلية، حيث يقيم السواد الأعظم من المغاربة في حي «لاكانيادا دي لامويرتي» (La Cañada de la Muerte). وللمغاربة في الحيين مساجدهم ومحالهم التجارية ومدارسهم، وهي تعطينا صورة عن غياب التعايش بين المغاربة والإسبان، كما تعبّر عن الاختلافات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية العميقة، وبالتالي ترمز إلى عالين يفصلهما عن بعضهما البعض جدار سميك.

في ما يتعلق بالجانب الثقافي، يعود تاريخ إنشاء أول مدرسة عربية في مليلية إلى سنة ١٨٨٠، وفي سبتة إلى سنة ١٨٨٨. بعد ذلك، شيدت مجموعة من المدارس الابتدائية على امتداد العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. أما أول مدرسة للتعليم الثانوي، فقد رأت النور في سبتة سنة ١٩٣١؛ يتعلق الأمر بـ «المعهد الإسباني المغربي». وسوف تستمر المدارس الإسبانية العربية في سبتة ومليلية إلى إعلان استقلال المغرب سنة ١٩٥٦، عندما تم إغلاقها تدريجياً، وأنشأ المغرب إثر ذلك مدرستين تابعتين لنظامه التعليمي، استوعبتا أكبر عدد من التلاميذ المغاربة في المدينتين.

في الوقت الحاضر، اختفت مدرسة سبتة، بينما نجحت مدرسة مليلية في مواصلة المشوار. ويمثل المسجلون فيها حوالى ١٠ بالمئة من التلاميذ المغاربة في المدينة، لأن الأغلبية تفضل المدارس الإسبانية. ويقدر عدد التلاميذ المغاربة في المدارس الإسبانية في كل واحدة من المدينتين بحوالى ٧,٠٠٠. هذا الحضور المهم من الناحية الكمية لا يواكبه حضور بالأهمية نفسها من الناحية النوعية، إذ إن نسبة الفشل الدراسي في هذه المدارس بين المغاربة هو أعلى بكثير منه بين الإسبان. وبحسب الأرقام الرسمية لمندوبية وزارة التربية الوطنية في سبتة ومليلية، سُجِّل ٨٠ بالمئة من حالات الفشل الدراسي فيهما بين المغاربة^(٢٧).

وفي العديد من الحالات لا يبقى أمام الشبان المغاربة الذين فشلوا في الدراسة من خيار، غير الانخراط في الجندية، حيث يتجاوز عددهم ٢٥٠٠ جندي من أصل ٨٠٠٠ جندي، هو مجموع ما يوجد في سبتة ومليلية. لكن فئة من الذين يفشلون في الدراسة ينتهي بهم المطاف إلى الانحراف، أو يتم استقطابهم من طرف بعض التيارات الدينية المتطرفة،

(٢٦) المصدر نفسه.

José María Irujo, «La Presión de «nuestro» islam,» *El País*, 12/9/2005, <<http://elpais.com/2005/09/12/espana/112647600185021>>.

التي تنشط في المدينتين بشكل لافت للانتباه، إذ تسيطر على مجموعة من المساجد، كما أرسلت عدداً من الجهاديين إلى أفغانستان، والعراق، وسورية، وشارك بعضهم في عمليات انتحارية.

وقد عرف الحقل الديني الإسلامي في المدينتين تحولات عميقة خلال العقد الأخير، وهو ما ساهم فيه تشعب الشأن الديني في إسبانيا بسبب تزايد عدد المهاجرين المسلمين، وبسبب بروز الإسلام السياسي بشكل غير مسبوق في إسبانيا وبقيّة البلدان الأوروبية عقب تفجيرات ١١ أيلول/سبتمبر. ومع ذلك، يمكن أن نميّز داخل الحقل الديني في سبّعة ومليلية بين الإسلام المعتدل الذي تشرف عليه «اللجنة الإسلامية في إسبانيا»، ومن خلالها فدراليتان هما «اتحاد الجمعيات الإسلامية في

تستنزف تجارة التهريب المعيشي الاقتصاد المغربي، إذ تبلغ قيمة الأموال التي تخرج من المغرب بطريقة غير قانونية لاقتناء السلع من سبّعة ومليلية نحو مليار ونصف مليار يورو في السنة.

إسبانيا» (UCIDE)، و«الفدرالية الإسبانية للهيئات الدينية الإسلامية» (FEERI)، اللتان نقلتا الخلافات التي توجد بينهما في إسبانيا إلى سبّعة ومليلية. وبين إسلام الجماعات الجهادية والتكفيرية التي عرف عدد المتعاطفين معها تزايداً لافتاً في المدة الأخيرة. وقد أصبح خطر الإرهاب حاضراً في المدينتين بشكل غير مسبوق، كما تؤكد تقارير الاستخبارات الإسبانية، وكذا الاعتقالات في صفوف الجهاديين المنتمين إلى تنظيم القاعدة وتنظيمات أخرى تدور في فلكها.

بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية، فبحكم أن سبّعة ومليلية منطقتان معفيتان من الضرائب، فإنهما تستفيدان من امتيازات خاصة في المجال الضريبي. ويتقاضى الموظفون رواتب أعلى من التي يتقاضونها في إسبانيا. وتشغل حوالى ٥٠ بالمئة من اليد العاملة النشيطة في المدينتين في الوظيفة العمومية، غير أن حضور المغاربة في هذه الوظيفة هو شبه منعدم، وحتى من يعمل فيها، فهم عادة في وظائف دنيا (سائقون، فراشون، مكلفون بأعمال النظافة). ويخلق الإقصاء من فرص الشغل توتراً في العلاقات بين إسبان المدينتين ومغاربتهم. وترى بعض المنظمات المدافعة عن المغاربة، أن سبب الإقصاء لا يعود فقط إلى عدم وجود أطر مؤهلة بينهم، وإنما كذلك إلى دوافع سياسية. لأن تزايد حضورهم في هذه الإدارة يتم ترجمته، أحياناً، كنقطة تخزم مصالح المغرب في مطالبه المتعلقة باستعادتهما.

في ظلّ هذه الوضعية، تبقى التجارة المصدر الوحيد للعيش بالنسبة إلى المغاربة، ويمتلك عدد منهم محالّ للمواد الغذائية والخضار والمجازر التي تباع اللحوم المنحورة على الطريقة الإسلامية. ويمتلك المغاربة، كذلك، أغلب المحالّ الموجودة في الحيّين التجاريين المخصّصين للتعامل مع المغاربة الذين يعيشون من التهريب المعيشي. ويقدر عدد المغاربة الذين يدخلون

يوميًا إلى كل واحدة من المدينتين بحوالى ٢٠ ألفاً^(٢٨). وتستنزف تجارة التهريب المعيشي الاقتصاد المغربي، إذ تبلغ قيمة الأموال التي تخرج من المغرب بطريقة غير قانونية لاقتناء السلع من سبتة ومليلية نحو مليار ونصف مليار يورو في السنة^(٢٩).

بالنسبة إلى المستقبل السياسي للمدينتين، يرفض الحزبان اللذان يصنعان التناوب السياسي في إسبانيا، وهما الشعبي والاشتراكي، فتح أي حوار رسمي مع المغرب، ومع ذلك يتم استعمال الموضوع كورقة انتخابية من طرفهما، حيث تكثر زيارات مسؤولي الحزبين إليهما أثناء الحملات الانتخابية.

وتتهم كذلك بموضوع سبتة ومليلية وتأثيره في العلاقات بين المغرب وإسبانيا، الأحزاب المحلية التي أسسها في المدينتين المتحدرون من أصول مغربية، وأهمها: «حزب التحالف من أجل مليلية» (Coalición por Melilla)، و«الحزب الديمقراطي السبتي» (UDCE).

لقد ساهم في تزايد حضور الأحزاب التي أسسها المغاربة في الحياة السياسية للمدينتين، تحول المغاربة إلى قوة انتخابية، بفضل تزايدهم الديمغرافي، وحصول أغلبهم على الجنسية الإسبانية. وقد أصبحوا يمثلون في الوقت الحاضر حوالى ٤٥ بالمئة من الأصوات^(٣٠)، وهو ما جعل عدد المصوّتين من أصول مغربية يتضاعف مرتين خلال السنوات العشر الأخيرة. غير أن أصواتهم مقسّمة، إذ لا يذهب إلا نصفها أو أقل إلى الأحزاب التي أسسها مغاربة، بينما يذهب النصف الباقي إلى الأحزاب الأخرى، أساساً الحزب الشعبي اليميني.

وبحسب تقارير الاستخبارات العسكرية الإسبانية، «الخطر الذي يمثله المغرب في سبتة ومليلية»، هو التزايد الديمغرافي، وليس القوة العسكرية^(٣١)، ويكمن التخوّف في توجّد الأصوات المغربية وتكتلها حول حزب يمثلهم تكون له مطالب ترابية، خصوصاً مع وجود تجارب على هذا المنوال في أقاليم إسبانية أخرى، مثل بلاد الباسك وكاتالونيا □

Ignacio Cembrero, *Vecinos Alejados* (Madrid: Galaxia Gutenberg, Círculo de Lectores, 2006), (٢٨) p. 238.

(٢٩) بحسب الغرفة التجارية لسبتة، ٧٠ بالمئة من اقتصاد المدينة مرتبط بتجارة التهريب مع المغرب. انظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

(٣٠) يعترف رئيس الحكومة المحلية للمليية «خوان خوسي إمبودا»، الذي يتولى هذا المنصب منذ سنة ٢٠٠٠، أن ثلث ناخبيه من أصول مغربية. انظر: *El País*, 21/11/2010, <http://elpais.com/diario/2010/11/21/eps/1290324416_850215.html>.

Irujo, «La Presión de «nuestro» islam».